التصدير (L'épigraphe) نحو كتابة متناصّة

د.عبدالقادر جلال
جامعة سيدي بلعباس

إنّ الكاتب – قبل كل شيء- قارئٌ مشبع بالنصوص. وعندما يقرّر حمل القلم والكتابة، فإنّه يستعير الكثير من الطرائق. والاستعارة ههنا هي شكل من أشكال الكتابة الثانية التي تتّخذ في حالة التصدير صوراً أهمّها:

1- **الاستشهاد (La citation)**: وهو اقتباس نص بشكل حرفيّ وغالبا ما يكون بين معقوفين.

2- **التلميح (Allusion)**: أو الاقتباس المعنوي، حيث يُسمح لنص سابق بأن يتردّد صداه في نص لاحق بطريقة ضمنية. وقد يكون اعتماد الكاتب – عند استحضاره لنص كهذا- على ثقافة القارئ الذي يحيك الروابط المتواطئة بين النّصّين.

3- **المحاكاة (Imitation) والتحويل (Transformation)**: أمّا المحاكاة فهي أن يحاول الكاتب النّسج على منوال سابقيه حذو الخطوة بالخطوة. وأمّا التحويل فيحمل صورتين؛ صورة تغيير أو طمس ملامح أسلوب نص سابق، ووهْبه ملامح جديدة، والصورة الثانية هي المعارضة التي تحمل طابع التحدّي والمجاوزة.

تناول "جنيت" (G. Genette) هذه الأشكال، حين قدم التعالي النّصي في كتابه "أطراس". وما يهمنا ههنا، هو الشكل الأول منها؛ الاستشهاد الذي تقصده الكتابة بوعي.

يرى "ف. لان" (Ph. Lane) بأنّ "التصدير" مكوّن إستراتيجي في الكتابة المتناصّة « بل هو الاستشهاد بامتياز، خلاصته ذلك الذي يظهر كوسام على حاشية كتاب، أو كجوهر له: إنّه وجهة النّظر الأساسية والرّمزية، موجزة في بضع كلمات، أو بضعة أسطر. إنّ هذه الميزة التي للتصدير تُخْرِجُ إلى العلن البُعد الرمزي للاستشهاد المقروء أو المشفّر»[14]. حيث يُنشئ التّصدير كنصّ موازٍ حواراً حقيقيا مع النص؛ يقوم إمّا بمضاعفة مضمونه، وفتحه على قائمة من المعاني المحتملة، أو بالتنبؤ ببعض مقاصده.

وسواء أكان التصدير واقعا في أوّل صفحة من بعض الأعمال الأدبية كالرواية، أو على نواصي الفصول. فإنّه يغدو – وبدون شك- النص الموازي الثاني بعد العنوان من حيث الأهمية. ومع

---

[14] - Ph. Lane: La périphérie du texte, p **46**: " L'épigraphe est donc la citation par excellence, celle qui figure en exergue du livre, la Quint essence de l'ouvrage, l'essentiel, du point de vue. Symbolique, en quelque mots, en quelque lignes. cette solennité de l'épigraphe fait apparaitre la dimension symbolique de la citation, symbolique lisible ou cryptée".
=vous pouvez regarder aussi: G. Genette, Seuils, p **134**: "Je définirai grossièrement l'épigraphe comme une citation placée en exergue, généralement en tête d'œuvre ou de partie d'œuvre".

ذلك لا يُقدّم "جنيت" التصدير إلا على الطريقة التي قدّم بها كلّ عناصر النص الموازي الأخرى؛ بدْءً بسؤالي الزمان والمكان، حيث يرى أنّ « الوضع الطبيعي للتصدير في أيّ كتاب هو كما قلت سابقا*، بأنّه بالقرب من النص، وغالبا على الصفحة الأولى التي تلي الإهداء، ولكن قبل المقدمة»[15]. ومع ذلك لا يقتصر استعمال التصدير –لدى بعض الكتاب– على هذا الموضع. بل إنّ استعماله في خاتمة الكتاب أمر وارد. ولهذا يميل إلى الاعتقاد بأنّ «هذا التغيير في الموضع يجرّ تغييرا في الدّور»[16]، ذلك أنّ التصدير الاستهلالي (L'épigraphe liminaire) موجّه خصيصاً للقارئ، في انتظار أن يربط علاقة بينه وبين النّص[17]. أمّا التصدير النّهائي (L'épigraphe terminal) « فهو يأتي من حيث المبدأ، بعد قراءة النص، ويحمل دلالة واضحة وغير ملتبسة وشديدة التلخيص: إنّ التصدير النهائي (الختامي) هو كلمة النهاية، حتى ولو أنّنا نتظاهر بتركه لغيرنا»[18].

---

* - يقصد ما قاله "سابقا"، ما جاء في الصفحة 134 من كتاب "عتبات"، من أنّ موضع التصدير من الكتاب كموضع القلادة من الجيد؛ أي أنه يقع في صدر الكتاب، ثم شرع بداية من النص المثبت في الأعلى في تحديد الموضع بدقّة.

15 - G. Genette, Seuils, p **138**: "La place ordinaire de l'épigraphe d'œuvre est je l'ai dit, au plus prés du texte, généralement sur la première belle page après la dédicace, mais avant la préface".

16 - G. Genette, Seuils, p **139**: " Le changement de place entraine un changement de rôle".

17 - Ibid., p **139**: "L'épigraphe liminaire, est pour le lecteur, en attente de sa relation au texte".

18- G. Genette, Seuils : p**139**: "L'épigraphe terminal est en principale; après lecture du texte, d'une signification évidente

ومن هذا الفعل نفسه، كون التصدير كلمة للاستشهاد، فإنّ ما يستتبع ذلك -يقول جنيت- من عملية إسناده، هو طرح سؤالين يبدوان واضحين، لكنهما ليسا بسيطين؛ الأول: من هو المؤلف الحقيقي أو المزعوم للنص المستشهد به؟ والثاني: من هو الذي اختار واقترح أن يجعله استشهاداً؟

إنّي أقترح -يواصل جنيت- تسمية المؤلف الحقيقي أو المزعوم للاستشهاد؛ المصدَّر به (**L'épigraphé**)، والثاني المصدِّر (**L'épigrapheur**)... أمّا من يتوجّه إليه التصدير، وهو القارئ فنطلق عليه: المصدَّر له (**L'épigraphaire**)[19]. وطالما أنّ التصدير ذو طابع لساني، فإنّ ككلّ الجمل الأولى في أيّ نص « يجب أن يكون دائما دعوة، لا يُقاوم رفضها أحد... [إنّ] الجملة الأولى، الكلمات الأولى، الوحدة السردية الأولى يجب عليها قبل كلّ شيء أن تُغريَ القارئ، ولكنّها كذلك مفاتيح تُعرض على النقد ليَدخل

---

et plus autoritairement conclusive: c'est le mot de la fin, même si l'on effectue de la laisser à un autre".

[19] - Ibid., p**140**: " de ce même fait (que l'épigraphe est une citation), il sait que son attribution pose deux questions en principe distinctes, mais dont aucune, n'est aussi simple qu'il n'y parait: qui est l'auteur réel ou putatif du texte cité? qui choisit et propose la dite citation? j'appellerai le premier l'épigrahé, le second l'épigrapheur, ou destinateur de l'épigraphé... sans doute le lecteur du texte étant si l'on y tient l'épigraphaire".

إلى النص»[20]. ولهذا يغدو الخطاب الذي ينتجه المصدِّر، والمصدَّر به والمصدَّر له معاً من الأهمية، بحيث لا يمكن تمثله إلاّ في هذا المثلث.

إنّ تحديد الوظائف التي يضطلع بها التصدير، تغدو من الأهمية بمكان بحيث لا يمكن القفز على ما دوّنه "ج. جنيت" أو "ف. لان" بشأنها. وإذا كان التصدير « دائما حركة صامتة تقع عملية تأويلها على عاتق القارئ»[232221]، فإن "جنيت" يقترح أربع وظائف له: اثنتين منها مباشرتين، والأخيرتين منحرفتين (**Obliques**). أما المباشرتان فهما:

1- **وظيفة التعليق على العنوان**: « وهي الوظيفة الأولى المباشرة بكل تأكيد... وظيفة التعليق أو أحيانا بشكل حاسم؛ التوضيح، ولكن ليس لتبرير اختيار النص، بل العنوان»[24]؛ أي أنّ

---

[20] - France Bernier: du paratexte au texte, lire l'Amérique dans Volkswagen blues de Jaques Poulin. Univ Laval, Canada, **1998**, p **32**. "La première phrase...devait toujours être une invitation à laquelle personne ne pouvait résister.... la première phrase, les premiers mots, la première unité narrative doivent d'abord séduire le lecteur, mais ce sont également des clés offertes, ou critique pour entrer dans le texte".

22

[23] - G. Genette: Seuils, p **145**: " Puisque l'épigraphe est toujours un geste muet dont l'interprétation reste à la charge du lecteur".

[24] - Ibid., p **145**: "la plus directe n'est certainement la plus ancienne... c'est la fonction de commentaire –parfois décisif-

التعليق لا يكون « على النص، ولكن على عنوان العمل»[25]. ثمّ إنّ هذا الإجراء التّصديري « الملحق بالوظيفة التبريرية للعنوان، لا يطرح تقريبا إلاّ عندما يكون العنوان نفسه مبنيا على الاستعارة أو التلميح أو المحاكاة السّاخرة»[26]، حيث يفتح التّصدير آفاق القراءة المتناغمة مع مقاصد الكتابة.

2- **وظيفة التعليق على النّص**: إنّ « الوظيفة الممكنة للتصدير هي بدون شك: التعليق على النص، إنها تحدد بدقة، أو تُلفت الانتباه بطريقة غير مباشرة إلى دلالته»[27]. وسيلاحظ القارئ مقدار ما يؤديه التصدير في تدوير بعض الزوايا الحادة في دلالة النص المتعارضة أحيانا مع رؤية المروي له في المتنين موضوع البحث.

3- **ضمانة التدليل**: وهي « الأكثر انحرافا...إنّ الرسالة المهمة، ليست تلك التي يحملها التصدير. فليس المهم ما نقوله، ولكن المهم

---

d'éclaircissement. Donc, et par la justification non du texte, mais du titre".

[25] - Ph. Lane: La périphérie du texte, p**48**: " La première est une fonction de commentaire non du texte, mais du titre de l'œuvre".

[26] - G. Genette: Seuils, pp **145- 146**: "Cette pratique de l'épigraphe en annexe justificative du titre s'impose presque lorsque le titre est lui-même, constitué d'un emprunt; d'une allusion ou d'une transformation parodique".

[27] - Ibid., p **146**: "La deuxième fonction possible de l'épigraphe est sans doute la plus caronique: elle consiste en un commentaire du texte, dont elle précise ou souligne indirectement la signification".

هوية مؤلفها، وتأثير الضمانة غير المباشرة التي يحددها حضورها على أطراف النص»[28]، حيث يغدو اسم المصدَّر به –أحياناً– أهمّ من التصدير نفسه.

4- وظيفة ناتجة عن حضور التّصدير أو غيابه « ذلك أنّ الأثر القوي والمنحرف للتصدير، إنّما يعود –ربّما– فقط لمجرّد حضوره كيف ما كان: إنّه أثر التّصدير: حضور أو غياب التصدير يشير لوحده في أجزاء قليلة من الخطأ، إلى الفترة والنوع أو نزعة الكتابة»[29]. حيث سيكون بمقدور القارئ أن يلاحظ بوضوح، حين يقترب من رواية تاريخية –مثلا– أن حضور التصدير مؤشر على الفترة أو مقاصد الكتابة، بينما يكون غيابه دليلا على خيارات في مواضعات الكتابة كذلك.

إنّ التصدير إذاً استشهاد قصير، منفصل عن النص، مثبّت في بداية الكتاب، أو في جزء منه كالفصول، يكون – في الغالب– بين مزدوجين وبخط مائل، أمّا اسم صاحبه فيكون – ربما– بين

---

[28]- Ph.Lane: La périphérie du texte, «La troisième fonction de l'épigraphe est celle de caution indirecte apportée par l'auteur de la citation invoquée. Dans ce cas, l'essentiel n'est ce qu'elle dit, mais l'identité de son auteur » p**51** .

[29] - G. Genette: Seuils, p **148**: "Le plus puissant effet oblique de l'épigraphe tient peut être à sa simple présence. Quelle qu'elle soit: c'est l'effet épigraphe. La présence ou l'absence d'épigraphe, signe à elle seule à quelque fractions d'erreur prés l'époque, le genre où la tendance d'un écrit".

قوسين[30]. وهذه المميزات يمكن أن يلاحظها القارئ في كثير من الأعمال السردية التي يستهوي مؤلفيها توظيف التصدير.

ومهما يكن من أمر، فإنّ أنواع التصدير، تتفرّع – في الغالب– عن أنواع تلك الوظائف. خاصة في الأعمال السردية، حيث يمكن أن تكون أنواعه بقدر التوليفة التي نعقدها بين وظائفه، كأن نجد مثلا:

1- **التصدير التخييلي:** « وهو الذي يقترح ملخّصاً للحكاية التي يتضمّنها النص»[31].

2- **التّصدير المعنوي:** « وهو الذي يعطي حكمة مرتبطة بأحداث رئيسية، أو بخلاصة العمل الأدبي»[32].

3- **التّصدير الموضوعاتي:** « الذي يركّز على فكرة مكررة عند الاقتضاء، والتي قد لا تكون –ربما– أساسية للسّرد»[33].

---

30 - G. Genette: Seuils, p**141**: " L'épigraphe peut-être imprimée entre guillemets, en italique...., le nom de l'épigraphé peut être entre parenthèses".

31 - Patric Rebollar; En lisant les épigraphes de Claude Simon, Etudes françaises (Revue de la section littéraire française) N°3. Tokyo-Université Wased **1966**, p **147**: "L'épigraphe diégétique, qui propose un résumé de la fable que contient l'œuvre".

32 - Ibid, p **147**: "L'épigraphe moral qui délivre une sentence liée aux événements principaux et à la conclusion de l'œuvre".

33 - Ibid., p **147**: "L'épigraphe thématique, centrée sur une idée, éventuellement récurrente qui n'est peut-être pas essentielle pour la narration".

4- **التصدير التمهيدي:** « وهو الذي يصْنع أولوية سردية، أو جغرافية، أوسياسية...، في بداية القصة»[34]، عن طريق تبئير وجهة نظر الكاتب الحقيقي.

5- **التصدير الأدبي:** « أين يمكن أن يكون الأسلوب كاشفا، أو ممثلا للعمل، أومعارضاً له»[35].

6- **التصدير الموضح لعنوان العمل**[36].

التصدير وتيمة الرّثاءفي رواية البيت الأندلسي

لا يمكن للقارئ أن تقنعه بسهولة تصريحات واسيني الأعرج، بأنه لا وجود للبكائية في البيت الأندلسي، خاصة عندما يواجهه النص الثاني من التصدير على الصفحة الثالثة من الرواية بعد الغلاف.

"وهذه الدار لا تُبقي على أحد ولا يدوم على حال لها شانُ

أبو البقاء الرّندي".

---

[34] - G. Genette: Seuils, p **147**: "L'épigraphe introductive, posant un préalable narratif, géographique, politique, ou autre, au commencement de l'histoire".

[35] - G. Genette: Seuils : p **147**: "L'épigraphe littéraire, dont le style dévoile ou présente celui de l'œuvre, ou s'y oppose".

[36] - Ibid., p **147**: "...l'épigraphe qui explicite le titre de l'ouvrage".

يشكل التصدير في الرواية ضرباً من ضروب التناص الحرفي المفصول عن بنية النص الأم، يتوسل غالبا الاستشهاد (الاقتباس) ليعلن عن نفسه. فإذا أضفنا إلى هذا الاعتقاد النصّ الأوّل من التصدير في الرواية:

" إن البيوت الخالية تموت يتيمة"

"غاليليو الرّوخو (سيدي أحمد بن خليل)"

تزداد قناعة القارئ بتيمة الرثاء في الرواية، على الرغم من أنّ خلفية النص الأوّل متخيّلة؛ استقدمت من الرواية نفسها. إن موقع التصديرين الأوّل والثاني من الرواية، يجعلهما تصديرين بدئيين تمهيديين (Epigraphes liminaires introductives) إذ بينما يتوجه الثاني للقارئ ويضطلع بوظيفة الإحالة على العنوان، يختص الأول بالإحالة على النص، فيضع أولوية سردية هي "البيت".

وإذا كان للتصدير وظائف ذكرنا بعضها في الفصل الثاني من هذا البحث، ولعل أهمها "التعليق"، فهل علّق التصدير في رواية "كتاب الأمير" على العنوان والنص فعلا؟

يشعر القارئ بذلك التناغم الذي بين النص الثاني من التصدير وبين العنوان، حيث تتردّد في ذهن القارئ أصداء سقوط الأندلس من خلال شخصية "أبي البقاء الرندي"، الذي بات اسمه

أيقونة لرثاء مدينة هي "غرناطة"، بل وطن هو "الأندلس". إنّ عنوان الرواية الذي يحتفظ بملامح غرناطة وأبي البقاء، اختصر الوطن والمدينة في بيت، ووهب للبيت هوية هي "الأندلس".

كاشفا لوعي الروائي، جاء النص الأول من التصدير ليعلّق، هذه المرة، على النص وليس العنوان. اقتبس الروائي هذا التصدير من الرواية، فهو إذاً افتراضي، ونسبته إلى شخصية من شخصياتها الورقية هو "غاليليو الرّخو" (سيدي أحمد بن خليل) يؤكّد ذلك. تقول الرواية:

- « حافظت على نزف جدي الرّوخو ونداءاته التي أكلتها البحار، وسكنتنا: **حافظوا على هذا البيت، فهو جزء من لحمي ودمّي. ابقوا فيه، ولا تغادروه حتى ولو أصبحتم خدماً فيه أو عبيداً**. ظنّي أنّ هناك دائما شخصاً ما، يرقب السّر من بعيد أو من قريب، وقدراً مفتوح العينين، لا يتدخل إلاّ في اللحظات الأكثر حِدّة وحساسية. لقد سرق البيت أحيانا، ونهبت حوائجه الثمينة، وفي أحيان أخرى قتل أهله ولم ينفذ منهم، ربما، إلا صبي صغير، أهمله القتلة لأنّ موته لم يكن يهمهم كثيراً. أو صِبْيةٌ تخبّأت بين أغصان شجرة عالية، أو سيدة اغتصبت حتى لم يبق في حياتهم إلاّ نزع قليل، هرّبها شخص ما، ربما كان من القتلة أنفسهم، **ظلت تحفظ الوصية الخرافية: إنّ البيوت الخالية تموت يتيمة**»[37].

[37] - واسيني الأعرج البيت الاندلسي، ص 31.

بأّر التصدير الأوّل هذه الوصية في النص الروائي على حساب صيغ أخرى من الخطاب وإن بَدت للقارئ مهمة، ولكن انتخابه لها دون غيرها، يدفع إلى الاعتقاد بأن الرواية هي "وصية" معنوية يتردد صداها منذ أربعة قرون تدعو للحفاظ على البيت/ الهوية.

- « أجَبْتُ سارة يومها وهي تسألني عن سليم، وكنت صادقا: لا أعتقد يا ابنتي أني رأيت حفيداً يشبهه، يبدو أنّ الطبيعة لا تجود دائما بأبناء ينشغلون بما نحسّه اتجاه هذا المحيط. هو الوحيد الذي حمل على ظهره قصة هذا البيت ونفّذ وصية جدّه: **حافظوا على هذا البيت فهو من لحمي ودمّي، ابقوا فيه ولا تغادروه حتى ولو أصبحتم خدماً فيه أو عبيداً**»[38].

- « **حافظوا على هذا البيت، فهو من لحمي ودَمّي. ابقوا فيه ولا تغادروه حتى ولو أصبحتم خدماً فيه أو عبيداً... سيدي أحمد بن خليل قال هذا الكلام ليحافظ من يأتي بعده على استمرار الحياة في هذا البيت**. وهذا ما أفعله. لأنه بيت مرتبط بالحب في زمن كانت تسوده الكراهية بين الناس وبين الأديان، بين الأجناس وبين القوميات في زمن الحروب الحقد دائما أعمى ولو كان بصيراً»[39].

- « والدي... لم يمنحني الشيء الكثير سوى أنّه كرّر على مسمعي جملته الأثيرة التي أصبحت مع الزمن مثل الحبل الذي يوضع على العنق: " **حافظوا على هذا البيت، فهو من لحمي ودَمّي. ابقوا فيه ولا تغادروه حتى ولو أصبحتم خدماً فيه أو عبيداً**.

---

[38] - الرواية، ص 43.

[39] - الرواية، ص 147.

عندما سألته من أين جاءته هذه الجملة الغريبة؟ هزّ رأسه ولم يكلّف نفسه حتى عناء الإجابة»[40].

إنّ ما يزيد من قوة هذا التركيب اللساني المتكرر كاللازمة في بعض مقاطع الرواية، وروده بخط ناصع ، فيظهر مختلفا عن ما قبله وبعده مما يقوي الاعتقاد بأن الرواية فعلا وصية للحفاظ على الهوية، التي يُخشى عليها أن تذوب في محاليل الأنانية والحداثة المشوّهة، كما ذابت الأندلس يوماً.

[40] - الرواية، ص 202.